دور المعاهدات في نشأة دولة الأمير عبد القادر
معاهدة دي ميشيل نموذجًا ١٨٣٤م

محمد الأمين بوحلوفة

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
المعهد الوطني للتكوين المتخصص
غليزان – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد الأمين بوحلوفة، دور المعاهدات في نشأة دولة الأمير عبد القادر: معاهدة دي ميشيل نموذجًا ١٨٣٤م.- دورية كان التاريخية.- العدد الخامس والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٤. ص ٩٩ – ١٠٤.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّصْ

إن مفهوم الدولة كما عرفها ابن خلدون هي كائن حي له طبيعته الخاصة به، ويحكمها قانون السببية، وهي مؤسسة بشرية طبيعية وضرورية، وهي أيضًا وحدة سياسية واجتماعية لا يمكن أن تقوم الحضارة إلاَّ بها، وقد عرف المغرب الإسلامي قيام عدة دول بنمطها القديم ولكن يعتبر الأمير عبد القادر أول مَنْ أسس دولة ذات سيادة وخصوصية جعلتها الأولى من نوعها في المنطقة وهذا نتيجة لظروف سياسية ومحلية، حيث كان من الضروري للأمير الشاب أن يوحد مجموع القبائل تحت راية واحدة وهي الدولة وفق ركائز إسلامية مبنية على القرآن كأساس للتشريع القانوني، ولكن رغم ذلك بقيت دولته في نظر الاحتلال الفرنسي عبارة عن إمارة أو تجمع قبلي رفض الوجود الفرنسي في الجزائر، ومع مرور الزمن أستطاع الأمير بحنكته وبراعته السياسية أن ينظم الدولة ويخلق لها هياكل ما أدى بها إلى أن تكون قوية، وبعد سلسلة المعارك التي خاضتها دولته ضد الاحتلال الفرنسي وجدت فرنسا نفسها مجبرة على الاعتراف به أو إن صح القول بدولته، وهذا من خلال توقيع معاهدات دولية معه ما أعطته هذه الصفة الشرعية والقانونية لدولة الأمير عبد القادر كطرف في النزاع، حيث ساهمت بشكل كبير بالاعتراف بدولته الفتية.

مُقَدِّمَةْ

بعد الاستسلام الفظيع للداي، وتوقيعه وثيقة تسليم مدينة الجزائر، دخلت الإيالة العثمانية مرحلة خطيرة من الصراع الداخلي وغياب القائد الفعلي لمجموع القبائل المتفرقة في المغرب الأوسط، فزادت عمليات النهب والسرقة وحالة انعدام الأمن بين القبائل العربية، في حين لم تشهد فرق حاميات الاحتلال الفرنسي سوى بعض الهجمات المتفرقة التي قادها بعض شيوخ القبائل المناوئين للسلطة التركية، وبذلك يمكن اعتبار أن المنطقة عاشت حالة فوضى لا مثيل لها كان محي الدين قد عبر عنها "إن جهودي القصوى لم تقدر على سوى على إنقاذ عدد قليل من الضعفاء والمشردين من أيدي قساة غلاظ".

لقد كانت الحاجة ملحة لكل القبائل من أجل أن تتوحد تحت راية واحدة و سلطة قوية قادرة على حفظ النظام الداخلي ومجابهة الرجل الأبيض الذي قد لا يتوانى في فعل أي شيء من أجل ضم أكبر مساحة ممكنة في شمال إفريقيا، وبالطبع كانت الأيدي كلها رفعت من أجل مبايعة محي الدين بن مصطفى لقيادة القبائل وحفظ النظام، لكنه تحجج بكبر السن وأن هذه المسؤولية أكبر منه فاقترح ابنه الشاب عبد القادر لهذه المسؤولية، وقد كانت البيعة لهذا الهاشمي بالغالبية فبايعته كل القبائل العربية في إقليم وهران، ومع مرور الوقت بدأت القبائل الأخرى تدخل تحت لواء الطاعة وبذلك بدأت ملامح السلطة تتكون ليصنع عبد القادر بطموحاته فكرة الدولة الحديثة.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بعد احتلال مدينة الجزائر سعت السلطات الفرنسية لبسط نفوذها في كل مدن الساحل فاحتلت وهران، وبذلك فرض عليها الواقع أن تصطدم بقوة الأمير عبد القادر العسكرية ودهائه الدبلوماسي، ومن هنا بدأ الصراع الفعلي، إذ بدأت الغارات والهجمات وتطبيق حرب العصابات مما جعل القوات الفرنسية منهكة، إضافة إلى الحصار المفروض على المنتجات الزراعية، كل هذا أحبط من عزيمة الضباط والجنود الفرنسيين، وقد كان الجنرال ديميشال في هذه الظروف مجبرًا على عقد معاهدة صلح بينه وبين أمير اعترفت فرنسا بدولته، ومن خلال كل هذا يمكن أن نؤسس لإشكالية البحث:

كيف ساهمت المعاهدات الدولية التي أبرمها الأمير عبد القادر في إرساء مفهوم الدولة الحديثة؟ وهل كانت هي بمثابة شهادة ميلاد لدولته؟ وإلى أي مدى كانت معاهدة ديميشال معترفة بدولة الأمير عبد القادر؟ وهل بغيابها كانت ستبقى دولة الأمير مقاطعة لا غير؟ كل هذا سنحاول الإجابة عليه.

المبحث الأول: المفاهيم المعاصرة للدولة

١/١- تعريف الدولة وأنواعها

قبل الانتقال إلى التعريف الفلسفي والسياسي للدولة يجب الإشارة لتعريفها اللغوي:

(أ) الدولة: دوران الحال وانتقاله.[١]

الدولة بضم الدال، الانتقال والتعاقب في أمور الدنيا، كالمال والجاه. الدولة بالفتح الانتقال في الحرب كأن ينتقل النصر من فئة لأخرى وقيل هما سواء.[٢] لم تستعمل الكلمة للدلالة على المعنى الحالي لمفهوم الدولة إلا في مراحل متأخرة سواء في العربية أو اللغات الأخرى، وقد كانت بدائلها مثل: السلطنة، المملكة، البلاد، الخلافة. أما في اللغات الأخرى: عند اليونانيين (polis)، وعند الرومان (Res publica). أما في العصور الوسطى فكانت مرادفة لـ (civitas) و (civilisation) المدنية.[٣]

(ب) أنواع الدولة:

الدولة المدنية: بمعنى الدولة المتحضرة التي تنتشر فيها مظاهر الحضارة العمرانية، والثقافية، ولعل التعريف القانوني لها هو كمَنْ يتولى الحكم فيها يكون مدنيًا وليس عسكريًا،[٤] ويكون القانون سيد الجميع، وتستمد سلطتها من اختيار الجماهير.

الدولة الدينية: التي يكون فيها الحاكم ذا طبيعة إلهية وهو مختار بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من الله، أو ما عُرف بنظرية الحق الإلهي ويترتب عن ذلك أن يكون الحاكم ذو منزلة عالية لا يرقى إليها أفراد الشعب، وبتعريف شامل هي مَنْ تعتمد على الدين المنسوبة له مهما كان هذا الدين، مثل دولة الفاتيكان.[٥]

٢/١- المنظور الفلسفي

التعريف الفلسفي للدولة:

الدولة باعتبارها تنظيم اجتماعي فهي اصطناعية ولا يمكن أن تتضمن قيمة أعلى من قيمة الحياة الدنيا كلها، وإذا كانت الدولة في خدمة الفرد لكي يحقق غاياته فهي مقبولة شرعية مع أنها تبقى مؤقتة، مثل جميع الكائنات.[٦] ولكن دانتي (Dante) يذهب إلى أن الهدف من التمدن الإنساني داخل الدولة هو تحقيق ما في البشر من قوة كامنة على تنمية الفكر،[٧] وبرجوعنا إلى التعريف الغربي الفلسفي نجد أن كورت شيلينغ أعطى مفهوم الدولة عند اليونان (pilis) والتي تعني قلعة الرجال الأحرار القادرين على الدفاع على أنفسهم، وارتبط مفهوم الدولة عند الإغريق بالحق. لكن توماس هوبز (Thomas Hobbes) يؤكد على أن الدولة نشأت نتيجة لميثاق حر أو تعاقد بين الأفراد مقابل تحقيق الأمن والاستقرار من طرف شخص أو مجلس يجسد إرادات الجميع.

أما هيجل (Hegel)، فيذهب إلى أن فكرة الليبيرالية التي تذهب إلى أن أصل المجتمع هو اجتماع أفراد أحرار ومتساوين واتفاقهم على إيجاد نظام يكفل حقوقهم ويحميها، أو ما يُعرف بالدولة هو اجتماع سياسي، وفي محاضراته في فلسفة التاريخ تناول هيجل فترة الانتقال التاريخية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، حيث هي فترة لم تكن الدولة الحديثة قد ظهرت بعد، كما اضمحلت فيها سلطات الملكيات القديمة، وهيجل بهذا المفهوم يرفض أن تؤسس الدولة حول تعاقد بين أفراد ويعتبر الدولة غاية وليست وسيلة.[٨]

يمكننا القول؛ أن مونتيسكيو (Montesquieu) عرف الدولة بأنها مؤسسة اجتماعية وأن الناس إنما تنازلوا فيها عن حقوقهم الطبيعية ليجدوا في هذه المؤسسة خير وافر وسلامة أفضل مما كانوا يجدونها في الطبيعة، أما الطرح السبينوزي فهو يشبه بما جاء به مونتيسكيو إذ يقول: "ومن ثَمَّ يظهر لنا بوضوح تام أنه لكي يعيش الناس في أمان، وعلى أفضل نحو ممكن، كان لزامًا عليهم أن يسعوا إلى التوحد في نظام واحد، الدولة، وكان من نتيجة ذلك أن الحق الذي كان لدى كل منهم على الأشياء جميعًا، بحكم الطبيعة، أصبح ينتمي إلى الجماعة ولم تعَدّ تتحكم قوته أو شهوته بل الجميع".[٩] ربما كان طرح سبينوزا يذهب إلى الحاجة الماسة للإنسان لتحقيق ما هو أفضل بالاجتماع و تأسيس مؤسسة قادرة على أن تكفل الحقوق لكل الأفراد المنتمين لها، وهذا ما نلمسه في طرح أدم سميث في أن الدولة تحمي المواطنين من الدول وتشرف على الخدمات العامة إذا عجز الناس على القيام بها، ولكنه بهذا التعريف قلص المفهوم في المهام فقط.

ولا يمكننا تجاهل الطرح الشيوعي، حيث يرى لينين أن الدولة من حيث النشأة هي عدم توافق بين المصالح الطبقية المتضادة فهي نظرة صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الكادحة، وهو ما يؤكده طرح فريديريك إنجلز (Friedrich Engels) في أنه عندما بلغ التطور الاقتصادي درجة اقترنت بالضرورة بانقسام المجتمع إلى طبقات . غدت الدولة . بحكم هذا الانقسام . أمرًا ضروريًا. من خلال هذا نستنتج أن الطرح الماركسي هو إنشاء الدولة من طرف الطبقة التي تملك لحماية الثروة من الطبقة التي لا تملك.[١٠] إن الطرح الخلدوني لمفهوم الدولة تمثل في حاجة الإنسان إلى الاجتماع، وهو

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

بذلك لا يستطيع أن يؤدي وظائف متعددة ولهذا دعت الضرورة إلى الاجتماع لتحسين الإنتاج.[١١]

بعد استعراض مجموعة من التعاريف الفلسفية، يمكننا أن نخرج بمفهوم شامل، هو أن الدولة عبارة عن اجتماع بشري يقصد منه حرية وحياة تكون مكفولة بسلطة الدولة.

التعريف السياسي للدولة:

يعرفها فقهاء القانون الدستوري بعدة تعريفات:

الدولة وحدة قانونية تتضمن وجود هيئة اجتماعية لها حق ممارسة سلطات قانونية معينة في مواجهة أمة مستقرة على إقليم محدد، وتباشر الدولة حقوق السيادة بإرادتها المنفردة وعن طريق استخدام القوة المادية التي تحركها "بونار". أما بالنسبة لـ هولاند هي "مجموعة أفراد يقطنون إقليمًا معينًا يخضعون لسلطان الأغلبية".[١٢] في حين عرفها موسى يوسف أنها جماعة من الناس تقيم في إقليم دائم ومعين ولها شخصيتها المعنوية ونظامها الذي تخضع له وحكامها واستقلالها السياسي".[١٣]

أما تعريفها القانوني المختصر هو "الشعب والإقليم والسلطة أي توجد جماعة من الناس هم شعب الدولة يعيشون على أقاليم محددة وينتظم الناس تحت حكومة معينة بيدها سلطة قانونية".[١٤] لم تختلف التعاريف الفلسفية والسياسية وحتى القانونية في تحديد مفهوم الدولة، باعتبارها ترتكز على الاجتماع البشري لتحقيق غاية مشتركة وضمان حرية بسلطة قانونية يؤديها شخص يكون أولى بها.

المبحث الثاني: دور القبيلة في صناعة سلطة دولة الأمير عبد القادر

تفيد الدراسات التي أعدت عن القبائل الجزائرية والعروش الكبيرة منذ عملية الاحتلال وحركة الاستيطان الأوروبية، أن عدد القبائل المستوطنة والموجودة داخل ربوع القطاع الوهراني يشتمل على ما يقل عن (٢٠٠) قبيلة،[١٥] تجمعت كلها في إتحاد قبلي موسع وهو ما يصطلح عليه بـ "الكونفدرالية القبلية". وخلال فترة القرن التاسع عشر استوطنت هذه القبائل عشر مناطق من القطاع الوهراني عرفت بأسمائها ومن بينها "ترارة، ولهاصة، دوابر، وزمالة،[١٦] جعفرة، لحشم، بنوعامر، لغسول، أهل آنكاد، أولاد سيدي الشيخ،[١٧] تراخي، حمميان.[١٨]

بعد مجيء الأمير عبد القادر، استطاع الحفاظ على النظام القائم وهو الأغوات زمن الأتراك[١٩] إذا استبدل الولاء من الأتراك إلى الأمير وبذلك أستطاع حفظ التركيبة القبلية. لم يثر استيلاء الفرنسيين على الجزائر في العرب أية مشاعر غير عادية بالخوف أو القلق وذلك طالما نزل الأوروبيون بشواطئ العرب، بل أنهم احتلوا مدنًا كوهران وطنجة، ولكن بإعلان بورمون الصريح أن فرنسا جاءت للسيطرة على البلاد، والسياسة التي باشرتها من طرد للداي إلى الاستيلاء على المدن الساحلية، وامتداد المراقبة العسكرية على حدود جبال الأطلس، كلها مؤشرات جعلت من القبائل تكتشف المخطط المخيف لهذه الحملة.

لقد كانت العلاقة السيئة والمتردية بين السلطة التركية والقبائل، جعلت من الأخيرة تجد الفرصة من الاحتلال لتنتقم من بطش واستبداد الداي، ولعل أول ظهور لشخصية الأمير كان مع طلب الداي حسن داي وهران الحماية من طرف قبيلة محي الدين، لكن رأي الشاب كان سياسيًا وصارمًا إذ أقنع والده ومجلس العائلة أن حماية الداي تعني الكراهية والدخول في حرب مع القبائل العربية في ظرف ليس لصالحهم،[٢٠] إذ يصرح قائلاً "ونتيجة لذلك سنجعل من كل القبائل التي تمقت الباي أعداء لنا وبعبارة أخرى فإن أعدائنا سيكونون كل عرب إقليم وهران"،[٢١] لقد برهنت هذه العبارة على أهمية القبائل في صنع السلطة آنذاك فقد عرف الأمير أن بدونها لن يكون لدولته وجود فهي الغالبية والمسيطرة على الساحة.

لقد كانت الأوضاع التي تعيشها القبائل العربية أقل ما يقال عنها كارثية، إذ أنهم شرهون ويتآمرون ضد بعضهم البعض ولا يصارعون إلا من أجل الثروة،[٢٢] وقد كانت البيعة التي حظي بها الأمير الشاب عبد القادر بمثابة العقد الطويل المدى بينه وبين القبائل، إذ يذكر البوشيخي في كتابه القول الأوسط في بعض ما حل بالمغرب الأوسط إلى تولية الشاب عبد القادر مسؤولية عظيمة "فلم يجدوا لهذا المنصب سوى الحاج محي الدين بن السيد مصطفى بن المختار فامتنع منها وأشار بها إلى ولده".[٢٣]

وبذلك يمكن اعتبار البيعة عامة اتخذت طابع الوطنية وشملت عديد القبائل من المغرب الأوسط، ولعل نص الوثيقة للبيعة يحدد لنا ولاء القبائل لسلطة الأمير ودولته الجديدة: القبائل الجنوبية اليعقوبية، الجعافرة، الحساسنة، بنو خالد، بنو إبراهيم، الجهات الجنوبية الشرقية، أولاد شريف، أولاد الأكرد، صدامة، خلافة، ومن الشلف: العطاف، سنجاس، بنو القصير ومرابطو مجاجة وصبيح وبني خويدم، وقبائل الوسط بسهول غريس ووهران وهي ابن العباس، عكرمة، المجال، فليتة، مجاهر، المكاحلية، الدوابر الزمالة، الغرابة.[٢٤]

لقد كان العدد الهائل من القبائل التي بايعت الأمير هو شهادة حقيقية لنواة الدولة الحديثة التي تستمد قوتها وسلطتها من القبيلة، وبعد هذا استطاع الأمير ضم أقاليم جديدة أخرى، كحمزة –البويرة- مجانة والأغواط وبسكرة ليصبح ثمانية أقاليم، فكل إقليم مقسم لناحية وعليها آغا وكل ناحية إلى قبائل وكل قبيلة إلى فرق على رأسها شيخ وقد كان الأمير قد أعطى صلاحية واسعة للخليفة.[٢٥] أما منطقة القبائل أو (kabyles) كما يسميها الاستعمار الفرنسي فقد أعلنت الولاء، إذ يذكر لنا صاحب كتاب" تيزي وزو من نشأتها إلى سنة ١٩٥٤م" أن قبائل الأمازيغ أيدوا بشدة الأمير فأبدى العمراويون تأييدهم وقدموا مساعدات (١٥٠) بغلاً محملاً بالتين والزيتون والصابون، وقد لقي ترحابًا شعبيًا هائلاً، أما فرسان

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

عمراوة من أبناء القبائل بقيادة بن سالم نفسه قد أبلوا في القتال بلاءًا حسنًا.[٢٦]

بالرجوع إلى نص الوثيقة في مؤلف تشرشل نجدها تعلن صراحة أن سلطة دولة الأمير مستمدة من القبيلة باعتبارها القوة الوحيدة آنذاك في مجتمع المغرب الأوسط "ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائما واجب الخضوع لنصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل".[٢٧] يمكن الحكم الآن؛ أن الأمير عبد القادر أسس مشروع دولته الحديثة على أكتاف القبائل العربية والبربرية لمجتمع المغرب الأوسط، فهي لعبت مرار في رجحان الكفة لصالحه على حساب السلطة الفرنسية التي إستاملت البعض منها، وفي الوقت كانت هنالك تحديات ظهرت في مسيرة هذه الدولة الفتية، كالصراعات الإيديولوجية كقضية التيجانيين، والصراع الخفي بين التركي والعربي الذي مثله الأمير وأحمد باي. لقد ساهمت القبيلة في صناعة سلطة ودولة الأمير عبد القادر، التي دامت قرابة (١٦) سنة، في حين لم تصمد في وجه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على حرب الاستنزاف ما جعل القبائل ترضخ في النهاية، وبذلك فقد الأمير كل شيء.

المبحث الثالث: معاهدة دي ميشال وظهور الدولة الحديثة للأمير عبد القادر ٢٦ فيفري ١٨٣٤

١/٣- تعريف المعاهدة الدولية:

المعاهدة: قال الزجاج: قال بعضهم العهد كل ما عوهد عليه وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد، ويأتي العهد بمعنى الوصية: يقول عهد إلي في كذا، أوصاني. العهدة: اسم ما يكتب، أو يتعاهد عليه، والعهيد المتعاهد لك بهذه العهدة وتعاهد.[٢٨] وبالتدقيق في مادة (عهد) ومشتقاتها في معاجم اللغة نرى أنها في الغالب تستخدم بمعنى المواثيق التي توثق بين الناس من اتفاقات أو عقود سواء وثق كتابة أو مشافهة. وفي الغالب عند إطلاق الكلمة دون قرينة لغوية تحدد المعنى فهو ينصرف إلى ما يتفق عليه الطرفان.

٢/٣- الناحية القانونية:

تعرف المعاهدة الدولية على أنها اتفاق مكتوب يتم بين أشخاص بقصد ترتيب أثار قانونية معينة وفقا لقواعد القانون الدولي.[٢٩] وتعني "المعاهدة" الاتفاق الدولي المعقود بين الدول في صيغة مكتوبة والذي ينظمه القانون الدولي سواء تضمن وثيقة واحدة أو أكثر. وتعرف أيضًا على أنها اتفاق يكون أطرافه الدول أو غيرها من أشخاص القانون الدولي ويتضمن الاتفاق إنشاء حقوق والتزامات قانونية على عاتق الأطراف، كما يجب أن يكون موضوعه تنظيم علاقة من العلاقات.[٣٠] يخرج من هذا التعريف "الكتاب، المراسلات، التسوية المؤقتة، تبادل المذكرات، الاقتراح".[٣١]

وتنقسم المعاهدة إلى قسمين: معاهدة ثنائية وتبرم بين طرفين، معاهدة جماعية ويزيد عدد أطرافها عن دولتين وقد تكون ذات اتجاه عالمي.[٣٢] من خلال هذه التعاريف نستطيع أن نخرج بتعريف شامل للمعاهدة الدولية وهي: عقد قانوني يتم الاتفاق فيه بين دولتين لمصالح تخدم كلا الطرفين المتعاقدين وبموجبه يكون شخص القانون الدولي هو الدولة.

٣/٣- معاهدة دي ميشال: (Di Michele)

لقد كان واقع الحرب صعبا على الجنرال ديميشال،[٣٣] فهو مخير بين أمرين إما الجلاء أو السلام وأما هذه الضرورة الفظيعة كتب إلى عبد القادر الأمير الشاب"... وإذا كان يناسبك أن تمنحني مقابلة معك فإني على استعداد لذلك على أمل أن يكون في استطاعتنا أن نوقف إراقة الدماء بواسطة معاهدة مباركة....".[٣٤] كانت هذه البدايات الأولى لاعتراف صريح لجنرال فرنسي بأن للأمير مكانة وسلطة في إقليم معين وفرض الواقع أن يتعامل معه كطرف للخروج من المأزق الذي عرفته الإدارة الفرنسية في مقاطعة وهران.

بالرجوع إلى كتاب حياة الأمير نجد أنه أرسل وزير خارجيته مولود بن عراش، وولد محمود إلى وهران حيث التقوا بمردخاي اليهودي يوم ٠٤ فيفري ١٨٣٤م مع مجموعة من الضباط الفرنسيين، وقد عبر برونو آتين في كتابه الأمير عبد القادر الجزائري أن الأمير كان يعلم أن الفرنسيين يحبون اليهود، وقد استعمل يهوديًا في صالحه، وبعد هذا التاريخ اقترح ديميشال على بن عراش وضع معاهدة مختلطة تحتوي على شروط كل طرف حيث جاءت على الشكل التالي سواء في مذكرات دي ميشال أو حياة الأمير لتشرشل:

المادة الأولى: إن الحرب بين الفرنسيين والعرب ستتوقف... ولهذا سيقيم ممثلوا الأمير في وهران ومستغانم وأرزيو وسيقيم الضباط الفرنسيون بمدينة معسكر.

المادة الرابعة: حرية التجارة تكون كاملة وشاملة.

المادة السادسة: كل أوروبي سيعطى إذا رغب في السفر داخل البلاد جواز سفر موقع عليه ممثلي الأمير ومصادق عليه من القائد العام حتى يجد المساعدة والحماية في كامل الإقليم.[٣٥]

لقد أكتفينا بالمواد التي تؤسس فعليًا لميلاد دولة الأمير عبد القادر الحديثة، وقد اعتبر المؤرخون أن مجرد التوقيع على المعاهدة هو انتصار سياسي ودبلوماسي للأمير، حيث اعترفت فرنسا بسلطته ودولته في مقابل إقراره لفرنسا بالسلطة على مدن الجزائر، مستغانم ووهران،[٣٦] وقد أكسبته صفة الشرعية في تعامله مع الخارج، وقد عبر الكاتب برنار حول معاهدة ديميشال أن الأخير أراد استخدام الأمير عبد القادر لكن هو الذي استخدم ديميشال.[٣٧]

وهكذا؛ برجوعنا لبنود المعاهدة نجد أنها تؤسس بطريقة قانونية لا لبس عليها بأن للأمير عبد القادر دولة تعقد معها المعاهدات، إضافة إلى تصريح ديميشال في مذكراته بقوله "أمير البلاد المفدى"،[٣٨] فهذه عبارة تدل على أن الأمير بالفعل له دولة تحترم وذات سيادة. ولا نخرج من مذكرات الجنرال، نجد أن المعاهدة التي أبرمت كانت في شكل وثيقة واحدة عكس ما كان الأمير يظنه ومبوعه بن عراش، حيث جعلت البنود العربية في جهة

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

والفرنسية في جهة ووقع كل تحتها بختمه، وهذا شكل ميلاد حقيقي لدولة الأمير فالتقاليد الأوروبية آنذاك تفرض على المتنازعين إبرام المعاهدات في نص واحد، وهذا سمح للوثيقة بأن تبين وجود دولة فعلية وبتعبير آليكس بالمار أن فرنسا اعترفت بسيادة الأرض التي يتحكم فيها الأمير بتوقيعها للمعاهدة معه.[٣٩]

تحليل بنود المعاهدة:

بقراءتنا للمادة الأولى في جزء " ... سيقيم ممثلوا الأمير في وهران ومستغانم وأرزيو.... وسيقيم الضباط الفرنسيون في مدينة معسكر". بالطبع هي عبارة مفهومة وواضحة وذات دلالة، هو أن السفير يمثل دولته، وبهذا يكون هذا البند قد اعترف بالسفير مما يستوجب عليه الاعتراف الضمني والصريح بالدولة، فدولة الأمير عبد القادر تمثل نفسها عند فرنسا بالممثل، وهكذا الحال مع فرنسا أين تمثل نفسها عندها بممثلها في معسكر.

أما المادة الرابعة "حرية التجارة تكون كاملة وشاملة. ربما لم يتفاهم الطرفان بعد المعاهدة حول المفهوم الدقيق، ولكن بالرجوع للنص الأصلي الذي كان مع الأمير الذي أرسله إلى ديميشال ووقع عليه نجده يعلن صراحة أن للأمير ميناء أرزيو وهو تحت تصرفه وبهذا كفل له الواجهة البحرية والتجارة الداخلية والخارجية، وقد حاول ديميشال حرمان الأمير منها باعتراف الأخير بمدينة وهران وأرزيو والجزائر[٤٠] للسلطة الفرنسي.

المادة السادسة: كانت هذه شارحة لنفسها بل أكدت بشكل نهائي وقطعي ميلاد الدولة، حيث جاء فيها "أنه يجب على المسافرين إلى داخل البلاد أن يكون له جواز سفر موقع من طرف قنصل الأمير، وهذا بيان أكيد لدولة تمتلك حدود وإقليم معين لا يجوز تجاوزه إلا بإذن الدولة، حيث نجد المادة تصنع للأمير سيادة حدودية ربما كان هو في غنى عنها.

لقد شكلت معاهدة ديميشال اعترافاً فعليًا وصريح على قيام دولة الأمير عبد القادر الجزائري ذات السيادة والخصوصية والواجهة البحرية، وبذلك أعقبتها معاهدة التافنة والتي تعتبر أكثر شمولية وتأكيد من السلطات الفرنسية على أن الأمير هو رجل دولة تبرم معه المعاهدات والاتفاقيات تحترم على أسس الأعراف الدولية.

خاتمة

لقد مثلت المعاهدة الدولية التي أبرمها الأمير عبد القادر وديميشال، الاعتراف الرسمي من فرنسا بدولة الأمير وشهادة ميلاد، ارتكز من خلالها على بناء دولته وتهيئة الهياكل الإدارية والسياسية، إضافة إلى أنها مهدت لمعاهدة التافنة التي كرست مبدأ القوة وجلب العدو لطاولة المفاوضات وإملاء الشروط، حيث برهنت هذه المواقف قوة الأمير في أعين القبائل التي بايعته وأسكتت أيدي المعارضة الداخلية والخارجية التي كانت تتربص بدولته ومشروعه الكبير، ويمكن أن نخرج ببعض النتائج التي تمخضت حول المعاهدة في نقاط نذكر منها:

- برهنت معاهدة دي ميشال قوة الأمير العسكرية في إرغام العدو الفرنسي ورضوخه لمعاهدة سلام أقل ما يقال عنها أنها كانت فاشلة بالنسبة للعدو الفرنسي وناجحة على جميع المستويات للأمير الشاب عبد القادر.
- مكنت المعاهدة باعتراف الإدارة الفرنسية أن للأمير عبد القادر دولة تتمتع بحدود وإقليم معين وسفراء لتمثيل دولته وواجهة بحرية.
- ساعدت المعاهدة بالتفرغ إلى القضاء على الأعداء الداخليين من بعض رؤساء القبائل الذين رفضوا الدخول في صف الدولة الحديثة، وترتيب الجيش وفق النسق الحديث.
- أصبح الأمير عبد القادر في نظر كل القبائل العربية بمثابة الشخصية التي لا تقهر، خاصةً بعد أن جاءت بوادر المعاهدة من الإدارة الفرنسية، وبذلك كرس الهيمنة المشروعة لقيادة الدولة إلى المستوى الحديث.
- لقد أعطت معاهدة ديميشال، الصورة الحقيقة للأمير عند الاحتلال بصفة عامة وعند الجنرال ديميشال بصفة خاصة صورة الدبلوماسي والسياسي الحقيقي، الذي يجب التعامل معه بجدية أكثر.
- مهدت كذلك إلى اتفاقات جديدة بينه وبين الفرنسيين كانت من بينها معاهدة التافنة، وجعلت الأمير يتوخى بعض الغموض الذي سبق في معاهدة ديميشال وبذلك أكسبته فن اختيار بنود المعاهدة.
- لقد برهنت معاهدة ديميشال ضعف التخطيط الإستراتيجي لجنرالات فرنسا آنذاك وهذا ما نراه في بعض بنود المعاهدة التي تعطي للأمير عبد القادر صلاحية كبيرة.

لا يمكننا الآن سوى أن نسلم بفرضية بعض المؤرخين الذين وصفوا الأمير عبد القادر بأنه صلاح الدين القرن التاسع عشر، وأنه يستحق أن يكون رجل دولة بالمعنى الحديث، والدولة لا تزول بزوال الرجال.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الهَوامِشُ:

(١) **معجم المقاييس**، ابن فارس، باب الدال والواو، **لسان العرب**، حرف الدال وفصل اللام.

(٢) **الحضارة والثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح والمفهوم**، نصر محمد عارف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٣٣ - ٥٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٤.

(٤) **الدولة المدنية مفاهيم وأحكام**، أبو فراس، دار عالم النوادر، ٢٠١١، مصر، ط١، ص ٢٤.

(٥) **الدولة الدينية والدولة المدنية**، إبراهيم خليل عليان، مؤتمر بيت المقدس، جامعة القدس المفتوحة، ٢٠١٢م، ص ١٤

(٦) **مفهوم الدولة**، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٨، ط٨، ص ١٣.

(٧) **الدولة الدينية والمدنية**، مرجع سابق، ص٧.

(٨) **هيجل ومفهوم الدولة**، أشرف منصور، الملتقى العالمي للفكر الفلسفي، لندن، ١٩٩٤، ص ١٨.

(٩) **الدولة في الفكر الغربي الحديث**، إبراهيم العلاف، مركز الحوار المتمدن، مصر، ٢٠٠٨، ص ١١.

(١٠) **أصل العائلة والملكية والدولة**، فردريك إنجلز، بمناسبة أبحاث لويس هنري مورجان (Morgan)، دار التقدم، موسكو ص : ٢٢٤ – ٢٢٥.

(١١) **مقدمة ابن خلدون**، ابن خلدون، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٥م، ط١، ص ٣٣.

(١٢) **المبادئ الدستورية العامة والنظم السياسية**، محمد كامل ليلة، دار النهضة، مصر، ١٩٩٥، ص ٢٢٣.

(١٣) **نظام الحكم في الإسلام**، يوسف محمد موسى، الجيزة للنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٩، ص ١٧.

(١٤) **إقليم الدولة في الفكر الإسلامي والقانون الدولي**، صلاح عبد البديع شلبي، دار الملايين، لبنان، ٢٠٠٢، ص ٤.

(١٥) **أرشيف ما وراء البحار**، أكس أون بروفانس الفرنسية.

(١٦) السلسة الصغرى رقم ٢، فهرست ملفات السيناتوس المتعلقة بالقبائل الجزائرية داخل القطاع الوهراني رقم [١٠٢٩].

(١٧) **دوايرو زمالة**، أحمد ولد قادي، مطبعة هانز، وهران، ١٨٨٣م، ص ٧٧.

(١٨) **الأرستقراطية التقليدية الوهرانية خلال ق١٩ والرأسمالية الاستعمارية**، مهديد إبراهيم، مجلة إنسانيات، ع٠٤، ١٩٩٨م، ص ٣.

(١٩) **مقاربة تاريخية حول الإقطاعية الجزائرية**، بيرك أغستان، مجلة البحر المتوسط، ١٩٤٩م، ص ١٨ وص٣٤.

(٢٠) **الحياة الاجتماعية والسياسية لمدينة وهران**، خلال العهد العثماني، بلغيث عبد القادر، مذكرة ماجستير جامعة وهران، ٢٠١٢م، ص ٥٥.

(٢١) **حياة الأمير عبد القادر**، هنري تشرشل، دار المعرفة، طبعة خاصة، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ٢٠٠٩م، ص٧٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

(٢٣) **القول الأوسط في بعض ما حل في المغرب الأوسط**، البوشيخي الشقراني أحمد بن عبد الرحمن الراشدي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١٩٩١،١، ص٣٦.

(٢٤) **عصر الأمير عبد القادر**، ناصر الدين سعيدون، تصدير عبد العزيز سعود البابطين، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للنشر،٢٠٠٠م، ص٢٠٧.

(٢٥) **الحركة الوطنية الجزائرية**، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٩٢م، ج١، ص٢١١.

(٢٦) **تيزي وزو منذ نشأتها حتى سنة ١٩٥٤م**، محمد الصغير فرج، ترجمة زمولي موسى، دار ثالة، الجزائر، ٢٠٠٢، ص٧١.

(٢٧) **حياة الأمير**، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٢٨) **القاموس المحيط** -٣٣١/١، **معجم الصحاح** -٥١٦/٢.

(٢٩) **محاضرات في القانون الدولي**، أحمد أسكندري ومحمد ناصر بوغزالة، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٩٦.

(٣٠) **محاضرات في القانون الدولي**، عبد الكريم علوان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩، ط٢، ص٢٥٩.

(٣١) **العلوم القانونية والاقتصادية**، محمد عزيز شكري، دار القلم، جمهورية مصر العربية، ١٩٩٩، مج١،ص ٨٦.

(٣٢) **محاضرات في القانون الدولي**، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(٣٣) **دي ميشال** (١٧٧٩- ١٨٤٥)، عسكري فرنسي برتبة جنرال، قائدًا على مقاطعة وهران (ماي ١٨٣٣- فيفري ١٨٣٥)، وقع المعاهدة المعروفة باسمه مع الأمير ١٨٣٤.

(٣٤) **حياة الأمير**، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١١٢- ١١٣.

(٣٦) **الأمير عبد القادر وأدبه**، عبد الرزاق بن سبع، مؤسسة جائزة سعود البابطين للنشر، ٢٠٠٠، ص٤٧.

(٣٧) **عصر الأمير عبد القادر**، مرجع سابق، ص ٣٧٥.

(38) *Oran sous le commandement du gènèral Desmicheles*. librairie militaire d'anselin ;D 1076 ; PARIS

(39) *Abd el kader sa vie politique et militaire*. Alex Bellemare. librairie de l'hachette et cie; paris. 1863. P.75

(٤٠) **حياة الأمير**، مرجع سابق، ص ١١٣.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449